تمهيد

المرأة العربية

obeikandl.com

obeikandl.com

كانت نظرة العرب الى المرأة نظرة طبيعية مرتجلة

ونعنى بالنظرة الطبيعيـــة المرتجلة أنهـــا النظرة التى لا يشوبها احساس دخيل من وهم العقائد أو حكم التشريع، ولكنها تمضى على الفطرة التى توحيها ضرورة الساعة أو ضرورة البيئة ؛ وتختلف على حسب هذه الضرورات

فالعرب لم يضربوا اللعنة قط على المرأة فى جاهليتهم ؛ لأن اللعنة التى ضربت على المرأة فى القرون الاولى وامتدت الى القرون الوسطى انما جاءت من الايمان بالخطيئة التى انحدرت بآدم وحواء من نعيم الفردوس ؛ وأصبحت المرأة ملعونة موصومة بالنجاسة والشر عند بعض الناس لأنهم القوا عليها تبعة الشهوات التى تثيرها فيهم وجعلوها حبالة للشيطان مذ كانوا يحسون بغوايته الخفية كلما أحسوا بغواية الشهوة الحيوانية ؛ ومناطها المرأة قبل غيرها من الاحياء

فالعرب لم ينظروا قط الى المرأة هـذه النظرة ، ولم يحكموا عليها قط بالنجاسة والأصالة فى الشر والخيانة ؛ لأنهم لم يعرفوا الخطيئة بهذا المعنى فى عهد الجاهلية

كذلك لم يعرفوا التشريع الموضوع الذى يحكم عليها بالاستعباد والحطة المتفق عليها فى المنزلة الاجتماعية ، وانما عرف هذا وأشباهه عند الرومان قبل الايمان بالخطيئة وقبل الايمان بالدين ؛ لأنهم كانوا أصحاب ملك عريض لا غنى لهم فيه عن ترتيب الحقوق والمعاملات بين ابناء المجتمع وبناته كافة ؛ فلما رتبوا هذه الحقوق نظروا الى المرأة فى زمانهم نظرتهم الى كل ضعيف تابع لغيره . ولم يلاحظوا فى ذلك عنتا خاصا بها ولا ضغينة « جنسية » موجهة اليها دون غيرها . لأنهم نظروا هذه النظرة بعينها الى أبنائهم الصغار والى القاصرين منهم على الاجمال . فعاملوهم معاملة الضعفاء وأعطوهم من الحقوق ما يعطاه الضعفاء ، وهم مع ذلك فى عزة الأقارب والأبناء

هذه النظرة ايضا لم يعرفها العرب فى جاهليتهم الاولى، لأنهم لم يضطروا الى وضع تشريع كامل لدولة كاملة . ولكنهم تركوا انفسهم على سجيتها كما تختلف بها عاداتها ومأثوراتها . وارتجلوا معاملة المرأة ارتجالا كما تدعوهم الى ذلك ضرورة البيئة أو ضرورة اللمحة الحاضرة . فربما عاملوها معاملة الرقيق المستضعف فى بعض الاحيان ، وربما نسبوا اليها الابناء دون الآباء من الرجال فى أحيان أخرى

والمرجع فى كل أولئك الى أحوال المعيشة العامة فى الجزيرة العربية

وخلاصتها السريعة انها احوال نزاع شديد على المرعى وموارد الماء ، لقلة المرعى والماء وكثرة طلاب هذا وذاك

وهذا النزاع الشديد يجعل القدرة على «حماية الذمار» مقدمة على كل قدرة ، لأنها مسألة تتعلق بها الحياة والفناء

وهو كذلك خليق ان يجعل المراة فى بعض الاحوال كلا ثقيلا على عواتق ذويها ، لأنها تستنفد القوت ولا تشترك فى حمايته والذود عنه

وهذا الذى يفسر لنا كثيرا من النقائض العجيبة فى الآداب العربية ، لانها ـ عند الرجوع بها الى أسبابها ـ لا تحسب من النقائض ولا تزال متشابهة متقاربة فى الاصول

فمن ذلك مثلا أن الحرب نشبت بين بنى بكر وبنى تغلب أربعين سنة لأن البسوس ابنة منقذ اضافت رجلا فضرب كليب ناقة ذلك الرجل وهو فى ضيافة البسوس ، فأقسم ابن أختها جساس لها « ليقتلن غدا جمل هو أعظم عقرا من ناقة جارك » وقتل كليبا سيد بنى تغلب فى ثأر تلك الناقة ، أو من اجل كرامة امراة فى ناقة جارها

والى جانب ذلك يعلم القارىء أن قبائل من العرب كانت تدفن بناتها فى طفولتها فرارا من عارها أو اشفاقا من نفقتها

ويلوح أنهما نقيضان لا يلتقيان

والواقع انهما غير نقيضين ، وأن البيئة التى تدعو الى احدى الخصلتين حقيقة أن تدعو الى الاخرى

فان آداب الحماية تجعل المراة احق شيء بأن يحمى وان يغار عليه الحماة ، لأنها أمس بالرجل من ارض المرعى ومن ماء البئر ومن الجمل والناقة ، فمن فرط فيها فما هو بقادر على حماية شيء من هذه الاشياء

ومن هنا فرط الغيرة على العرض وايثار الموت للبنت على العار

واذا رجعنا الى الاصل فى « آداب الحماية » وهو النزاع الشديد الذى أوجبه شح الارض بالرى والطعام ، فالحاجة الى القوت خليقة أن تغرى بالقسوة المهينة وان توسوس للمعوزين فى سنوات الضيق بالتخلص ممن يستنفد القوت ولا يعين على تحصيله أو الذود عن موارده ، ونعنى بهن البنات الزائدات عن حاجة القبيلة فى تلك السنوات

وربما ظن بعضهم أن الواد كله من مخافة العار كما قال البحترى وهو يعزى بنى حميد ذلك العزاء العجيب عن فقد فتاة :

اتبكى من لا ينازل بالسيـ ـف مشيحا ولا يهز اللواء

ويختم عزاءه بقوله :

ولعمرى ما العجز عنـــدى الا
ان تبيت الرجال تبكى النســـاء

فقد قال فى تلك القصيدة :

لم يئـــد كثرهن قيس تميم
عيـــلة ، بل حميـــــة واباء

يشير الى قيس بن عاصم سيد بنى تميم الذى اقسم ليئدن كل بنت ولدت له لأن ابنته اخبارت صاحبها الذى سباها على العودة الى اهلها . فكلام البحترى ان صدق فانما يصدق على قيس وامثاله . ولكنه لا ينفى ان العرب وجد فيهم من يئد البنات عيلة ــ أى اشفاقا من النفقة ــ كما وجد فيهم من يئد البنات انفة من العار . وآية ذلك ان صعصعة بن ناجية كان يشترى البنـــات من آبائهن ليستحييهن فيقبلون ذلك ويبيعونهن راضين عن بيعهن ، حتى قيل انه افتدى ثمانين ومائتى وليدة بالشراء . ولو كان آباؤهن يئدونهن خشية العار وحـده لما اغنى عنهم اقصاؤهن وهن فى قيد الحياة ، ولحق بهم فى بيعهن عار لا يقبله من يأنف من العار

والقرآن الكريم يقول : « ولا تقتلوا اولادكم خشـــية املاق »

ونخرج من هذا جميعه بأن هذه النقائض الظـــاهرة

مصدرها واحد ، وهو النزاع على الرزق وما اوجبه من تقديس فضائل الحماية والدفاع عن الحرمات . فهـذا المصدر يفسر لنا وأد البنات خشية الاملاق كما يفسر لنا وادهن خشية العار ، ويفسر لنا احتقار البكاء على المراة كما يفسر لنا اعزاز جارها حتى لتنشب الحرب أربعين سنة غضبا من اصابة ناقة فى جوار خالة رئيس ، ويرجع كله الى نظرة طبيعية تجرى مع الحـوادث فى مجراها ، فلا يشوبها وهم من عقيدة دينية ولا يخالطها قيد من أحكام التشريع

ومن لوازم هذا النزاع الشديد فى مظهر آخر من مظاهر البادية العربية أنه جعل المراة عاملة نافعة فى حياة الاسرة وحياة القبيلة ، لان المعيشة الضنك التى كان يعيشـــها البدوى فى صحرائه المجدبة تأبى عليه الترف والبـــذخ ولا تتسع لاسراف المدنى الذى ينفق ما ينفق على المراة ولا ارب له عندها غير المتعة والمسرة ولا عمل لها عنده غير الراحة والزينة. فكانت المراة العربية ــ فى البادية خاصة ــ تعمل كل ما تستطيع ان تعمله لخدمة اسرتها وقبيلتها ، وتعلم كل ما تستطيع أن تعلمه لاتقان عملها وتجـــديد خدمتها . فكانت ترعى الابل والشاء وتمخض اللبن وتغزل الصوف وتصنع الخيام وتضمد الجراح وتطب لنفســها

فى شؤون الحمل والولادة وتحذق من هذه الشؤون ما تجهله المراة الحضرية فى كثير من امم العصر الحديث ، وتعينها على ذلك حاجتها الى تطبيب نفسها وقيامها على رعى الاحياء التى تلازمها فى غدوها ورواحها وفى صحتها ومرضها وفى حملها وولادتها وفى اختيار الاصلح والاجدى لنسلها ونتاجها

سئلت فاطمة بنت الخرشب : اى بنيك افضل ؟ فقالت : « والله ما ادرى . انى ما حملت واحدا منهم تضعا ولا ولدته بتنا ولا ارضعته غيلا ولا منعته قيلا ولا انمته تئدا ولا سقيته هديدا ولا اطعمته قبل رئة كبدا ولا ابته على مائة »

ومعنى الحمل التضع ما كان قبيل الحيض ، والحمل الوضع ما كان على اثره ، وكلاهما مكروه عند العرب لاعتقادهم انه يشوب النطفة بما يفسدها او يضعفها فلا تسلم مع هذا الافساد او الضعف صحة الجنين

ومعنى الولادة البتن ان يولد الطفل منكسا ، فتعسر ولادته وقد تصاب عظامه

ومعنى الارضاع غيلا ان ترضع المراة طفلها وهى حامل فلا يخلص اللبن للغذاء المفيد

ومعنى الارضاع قيلا ان ترضع المراة طفلها عند اشتداد

حر القيلولة فتنقع غلته ولا تعرضه لأذى الارواء بالماء ؛ وهو فى البادية قليل الصفاء

ومعنى النوم تئدا أن ينام الطفل فى موضع صعب أو وخم يؤرقه ويوبقه بوخامة هوائه

ومعنى الهديد اللبن المتكبد ؛ واطعام الطفل الرئة أو الكبد يثقل على جوفه لصعوبة هضمها على معدته الصغيرة

أما المبيت على مأقة فهو المبيت على غضب وكمد ؛ وهو ضار بكبار الرجال فضلا عن صغار الاطفال

وقد رويت عن نساء العرب صفات أخرى للحمل والرضاعة تشبه هذه الصفة فى جملة معناها ، وهى صفات لا يشترط أن تطابق العلم الحديث فى جميع تحليلاته وتفصيلاته ؛ بل حسبها على سذاجتها أن تدل على طب معروف فى علاج الحمل والولادة والرضاع ، وأن الامر فى هذه الشؤون لم يكن عند المرأة العربية هملا متروكا للمصادفات كما يشاهد ذلك فى بيئة الكثير من الحضريات المعاصرات

▭

الا ان الشظف الذى كان يعم الجزيرة العربية ويذكى فيها ذلك النزاع الشديد على الرزق لم يكن خلوا من الجوانب التى يرق فيها ويلطف وتسرى منها الرقة واللطف

الى العلاقة بين الرجال والنساء فتنعم المرأة بالرفق الذى يرفع من مكانتها ويهذب من معاملتها فى سائر البيئات الانسانية لا فى الجزيرة العربية وحدها

واهم هذه الجوانب جانب النشأة فى بيئة الحضارة ، وجانب النشأة فى بيئة السيادة

فالحضارة تصقل الطباع وتهذب حواشى النفوس وتغنى القبائل عن القتال وعن ثورة الغضب للذمار المهدد بالليل والنهار ، واول ما يظهر هذا الصقل والتهذيب فى العلاقة بين الرجل والمرأة لانها العلاقة التى تمتحن بها الكياسة وآداب الخطاب

والسيادة تعلم السادة ان يعنوا بمكان بناتهم من العزة والرخاء ، فلا يسلمونهن لمن ينزل بهن عن منزلة العقائل المبجلات اللواتى يغنين فى بيوتهن عن الخدمة المسفة والعيش الذليل

ولهذا كان سادة العرب يختارون الازواج لبناتهم ثم لا يكتفون باختيارهم حتى يشركوهن فى الرأى ويدخلوهن فى المشورة ، ومن انباء ذلك التى استفاضت فى الادب العربى أن الحارث بن عوف المرى قدم على أوس بن حارثة الطائى خاطبا فدخل اوس على زوجته ودعا ببنته الكبرى فقال لها : يا بنية ! هذا الحارث بن عوف سيد من سادة

العرب قد جاءنى طالبا خاطبا وقد اردت أن ازوجك منه فما تقولين ! قالت : لا تفعل . قال : ولم ؟ قالت : لأنى امرأة فى وجهى ردة وفى خلقى بعض العهدة ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى ، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون على وعليك من ذلك ما فيه

فصرفها ودعا بابنته الوسطى وعرض عليها ما عرضه على الكبرى . فقالت : انى خرقاء وليست بيدى صناعة ولا آمن ان يرى منى ما يكره فيطلقنى !

فلما دعا بأختها الصغرى قالت : « .. ولكننى والله الجميلة وجها الصناع يدا الرفيعة خلقا الحسيبة ابا ، فان طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير ! »

وهذه الفتاة الصغرى ـ واسمها بهيسة ـ هى التى تزوجها الحارث وزفت اليه ، فأنكرت منه أن يدخل عليها فى ثياب العرس والحرب قائمة بين عبس وذبيان فلا يشغله عن الطيب والزفاف أن يصلح بينهما ... فأكبر منها زوجها هذه الحكمة وسعى فى الصلح بين الحيين حتى استجيب له

وممن جاءت الانباء على اختلاف الروايات باستشارتهن فى الزواج هند بنت عقبة ام معاوية بن ابى سفيان . وقد

خطبها سيدان من قومها فاستخبرت اباها عنهما فقال يصفهما : « اما احدهما ففى ثروة وسعة من العيش ، ان تابعته تابعك . وان ملت عنه حط اليك . تحكمين عليه فى اهله وماله . واما الآخر فموسع عليه منظور اليه فى الحسب الحسيب والراى الاريب ، مدره أرومته وعز عشيرته . شديد الغيرة لا ينام على ضعة ولا يرفع عصاه عن اهله »

فقالت : « يا ابت ! الاول سيد مضياع للحرة ، فما عسى ان تلين بعد ابائها وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشرت وخافها اهلها فأمنت لا ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها . فان جاءت بولد أحمقت ، وان انجبت فمن حطأ ما انجبت ، فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه على بعد ! واما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العقيلة . وانى لأخلاق مثل هذا لموافقة . فزوجنيه »

ويلوح من تكرار هذه الانباء أن استشارة البنات فى امر زواجهن كان سنة من السنن المرعية بين سادات العرب لا يشذ عنها الا القليل

ت

ومن البديه ان هذه العادات والآداب التى تنشأ من بيئة الوطن ومناخه تعم الأمة برمتها ولا يقع فيها التفاوت الا

ما لا بد منه بين فرد وفرد ، او بين طبقة وطبقة ، على المثال الذى قدمناه

بيد أنك قد ترى فى الامة طائفة من عليتها أو بيتا من بيوتها يخيل اليك أنهم خصوا من دونها بصفوة هـــذه الآداب ونقاوة هذه العادات

أو يخيل اليك أن آداب الأمة كلها انما كانت تحضـــيرا مقصودا لهذه الطائفة أو لهـذا البيت ، يأخذون منـــه بالخلاصة المصفاة واللباب المختار

فاذا صح هذا الوصف فى قبيلة من قبائل العرب فهو أصح ما يكون فى قبيـــلة بنى تيم ، ثم فى بيت ابى بكر الصديق الذى كان فى موضع الذؤابة من هذه القبيلة

فقد اجتمعت لبنى تيم خلاصة الآداب التى نجمت من فرائض الحماية والذود عن الذمار ، ثم تناولتها بالصـقل والتهذيب بيئة السيادة وبيئة الحضارة

وكان بيت الصديق على التخصيص مثلا فى هذه الآداب جميعها يحتذى به بين الحواضر العربية

لأن سيادة هذا البيت لم تكن سيادة طغيان وقتـــال ، ولكنها كانت سيادة شرف وامانة ، وكانت حصته فى الجاهلية من مقاوم الشرف حصة الوفاء بالمغارم وضمان الديون ، وعمله الاكبر فى الجاهلية يدور على التجارة ومعاملة الناس

ولا يدور على البأس والاكراه

فنشأ البيت كله على الرفق والدماثة ورقة الحاشية ، واشتهر بتدليل نسائه وبناته حتى قيل ـ كما جاء فى الاغانى ـ انهن كن احظى خلق الله عند أزواجهن . وكانت عند الحسين بن على رضوان الله عليهما ام اسحاق بنت طلحة ، فكان يقول : « والله لربما حملت ووضعت وهى مصارمة لى لا تكلمنى »

وندر من أبناء الصديق رضى الله عنه من لم يكن له مع امراته شان يذكر فى باب المحبة بين الازواج :

فعبدالله اكبر أولاده بنى بعاتكة بنت زيد العدوية فهام بها وشغل عن خاصة امره وعامته حتى نصح له أبوه بطلاقها فطلقها وهو كاره . ثم أدركه الندم فنظم فيها القصائد ومنها :

اعاتك لا انساك ما ذر شارق
وما لاح نجم فى السماء محلق
اعاتك قلبى كل يوم وليلة
لديك بما تخفى النفوس معلق
ولم ار مثلى طلق اليوم مثلها
ولا مثلها فى غير شىء تطلق

وأخوه عبد الرحمن نفله عمر بن الخطاب ليلى ابنة

الجودى من حسان غسان الموصوفات بالقسامة والجمال فلازمها ولم يفارقها فترة الا نظم الشعر فى الحنين اليها . ومن قوله فيها :

تذكرت ليلى والسماوة بيننا
فما لابنة الجودى ليلى ومالیا
وأنى نلاقيها ! بلى . ولعلها
اذا الناس حجوا قابلا أن توافيا

وأفرط فى التعليق بها حتى لامته شقيقته السيدة عائشة رضى الله عنها وما زالت به حتى جفاها ، فعادت تلومه فى جفائها وتقول له : « افرطت فى الامرين . فاما أن تنصفها، واما أن تجهزها الى اهلها »

فجهزها الى اهلها

ومن ذرية الصديق « ابن أبى عتيق » صاحب عمر بن أبى ربيعة شاعر الغزل المشهور ، وكان يسمع بالجفاء بينه وبين الثريا فيركب من مدينة الى مدينة ليصلح بينهما ، ولا يترجل عن مطيته حتى يتم الصلح على ما يرومه

وهو مع هذا كان يتحرج من نزوات عمر ويسأله : ألم تخبرنى أنك ما اتيت حراما قط ؟ فيقول : بلى ! فيستخبره عن قوله :

وما نلت منها محرما غير أننا
كلانا من الثوب المورد لابس

ثم لا يتركه حتى يجيبه بما يدفع شكه ويرده الى حسن ظنه

▭

فآداب الرجال والنساء فى بنى تيم كانت مثالا للرعاية التى تظفر بها المرأة العربية فى بيئة السيادة وبيئة الحضارة

ولكنها لم تزل عربية فى قرارها ، ولم تنقطع عن آداب الأمة التى جعلت عرضها احق شىء بالحماية ، وأقمن حصن أن تمنعه وتغار عليه

فكان ابو بكر نفسه مثلا من أمثلة الغيرة بين أهله وقومه، وقد قال ابن سيرين : كان اغير هذه الامة بعد نبيها ابو بكر . وروى عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن نفرا من بنى هاشم دخلوا على زوجته أسماء بنت عميس فكره دخولهم عليها وشكاهم الى النبى عليه السلام فقام على المنبر فقال : لا يدخلن رجل بعد يومى هذا على مغيبة الا أن يكون معه رجل أو اثنان

ولما شبب عمر بن أبى ربيعة بعائشة بنت طلحة التيمية تجمع فتيان تيم فأنذره لئن تعرض لها بعد ذلك ليقتلنه شر قتلة . فأقسم لا عاد

وعائشة هى التى كانت تعاتب فى كشف وجهها فتقول : « ان الله وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس

ويعرفوا فضله عليهم ؛ فما كنت لأستره . ووالله ما فى وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد »

فهو دلال لا ينسى الصيانة ، ورفق لا ينسى الغيرة ، وآداب سيادة وحضارة لا تنسى الاصول المعروفة فى آداب البداوة

وفى هذه البيئة التى تحوطها الحمية والرعاية نشأت ربة هذه الدراسة وموضوع هذا الكتاب : عائشة بنت الصديق رضى الله عنها

ولكنها تفردت برعاية لم تشركها فيها ولائد هذه البيئة فقد تربت على النعمة والخير ، وتدربت على العزة والكرامة ، وتعلمت القراءة التى لم يكن يتعلمها من نجباء الابناء فى بيوت السادة الا القلة المعدودة

فصح أن يقال ان الرعاية التى ظفرت بها ربة هذه الدراسة كانت هى خلاصة الكرامة التى هيأتها لبناتها حمية البداوة ، وصقلتها مع الزمن شمائل الحضر ومآثر الشرف والسيادة